مكانة الصدق في الإسلام

محاضرة أعدت لإلقائها على طلبة كلية القانون بالزاوية

إعداد

الدكتور عمر مولود عبدالحميد

مكانة الصق في الإسلام

الصدق ضد الكذب، ومعناه أيضاً: الإخبار بالواقع[1]، وهو أيضاً : موافقة الحق في السر والعلانية، ومطابقة الظاهر للباطن، ويفتح صاد الصدق ويكسر، فيقلا: صَدق بالفتح، وصِدق والكسر أشهر، وكل ما ينسب إلى الصلاح والخير يضاف إلى الصدق، فيقال: رجل صدق، وصديق صدق.

وقد ورد ذكره في القرآن الكريم في مواضع كثيرة تجاوزت الستين موضعاً، ومنه قول الله–تعالى–: ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [2]وقوله –أيضاً– ﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ [3]، وقوله –جلت حكمته–: ﴿ مِنَ المُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [4].

ولأهميته اعتبر وصفاً ملازماً للرسل الكرام، فلم يرسل الله رسولاً إلا وهو صادق فيما أتى به، والصدق في حقهم أحد أوصاف أربعة لازموها ولازمتهم، وهي: الصدق، والأمانة، والتبليغ، والفطانة، ولا يصح إيمان شخص إلا إذا صدّق اتصاف الرسل بها، وقلة من البشر غير الأنبياء والرسل ظفروا من مجتمعهم بهذا الوصف، وكان نبينا –صلى الله عليه وسلم– قد وصف به من طرف قومه قبل ان ينبّأ، فقيل في حقه: الصادق الأمين، فإذا أريد المبالغة في هذا الوصف ومنه قيل: الصدّيق، وهو لقب لأبي بكر الصديق أول خليفة رسول الله –صلى الله عليه وسلم– في الإسلام، ونعت به سيدنا إبراهيم في قول الله – جلت حكمته–: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الكِتَابِ

---

(1) المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى وآخرون، تح: مجمع اللغة العربية، دار الدعوة، مادة: ص د ق؛ النفيس من كنوز القواميس، خليفة محمد التليسي، مادة: ص د ق؛ القاموس الفقهي لغة واصطلاحاً، سعدي أبو جيب، دار الفكر، دمشق –سورية، مادة: ص د ص.

(2) سورة القمر، آية55.

(3) سورة يونس، آية 93.

(4) سورة الأحزاب، آية 23.

إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِياًّ﴾ [1] كما نعت به نبي الله إدريس –عليه السلام– في قوله تعالى: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِياًّ﴾ [2]، وقد خوطب يوسف –عليه السلام– بذلك، كما ورد في سورة يوسف في قوله –تعالى–: ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ﴾ [3].

ولا يمتلك الصادق وصف المبالغة في الصدق بحيث يصير صديقاً إلا إذا اتصف بالصدق في جميع معاني الكمال التي هي: الصدق في القول، والصدق في النية والإرادة، والصدق في العزم، والصدق في الوفاء بالعزم، والصدق في العمل والصدق في تحقيق مقامات الدين كلها[4].

ثم إن الصدق في القول له مراتب، أعلاها: ألا يجعل الشخص كلامه محتملاً للتفاسير التي تجعله في محل النقد والاشتباه بما لا يجوز شرعاً، ويقتضيه ذلك أن يترك المعارض ، فهي وإن جاز في بعض الظروف التلفظ بها –كما حصل من النبي –صلى الله عليه وسلم– ومعه أبو بكر حينما سئلا: ممن أنتما؟ فقال الرسول –صلى الله عليه وسلم–: "نحن من ماء"[5].

---

(1) سورة مريم، آية 41.

(2) سورة مريم، آية 56.

(3) سورة يوسف، آية 46.

(4) ينظر إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، 375/4.

(5) تحت عنوان: (الرسول –صلى الله عليه وسلم– وأبو بكر يتعرفان أخبار قريش) قال ابن هشام وهو يتحدث عن غزوة بدر ومقدماتها وأسبابها حين: (وقف النبي –صلى الله عليه وسلم– علي شيخ من العرب، فسأله عن قريش، وعن محمد وأصحابه وما بلغه عنهم، فقال الشيخ: لا أخبركما حتى تخبراني ممن أنتما، فقال الرسول –صلى الله عليه وسلم–: إذا اخبرتنا أخبرناك، قال: أذاك بذلك؟ قال: نعم، قال الشيخ: فإنه بلغني أن محمدا وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان صدق الذي أخبرني فهم اليوم بمكان كذا وكذا للمكان الذي به رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، وبلغني أن قريشاً خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان الذي أخبرني صدقني فهم اليوم بمكان كذا وكذا للمكان الذي فيه قريش، فلما فرغ من خبره قال: ممن انتما؟، فقال رسول الله –صلى الله عليه وسلم– : نحن من ماء، ثم انصرف عنه، قال يقول الشيخ: ما من ماء أمن ماء العراق؟. قال ابن هشام: يقال ذلك الشيخ: سفيان الضمري) السيرة النبوية، لأابن هشام، ط2، 1375هـ–1955م، مطبعة مصطفى الحلبي –مصر، القسم الأول 1+616/2.

وكما حصل من أبي بكر الصديق –رضي الله عنه– أثناء هجرته مع رسول الله –صلى الله عليه وسلم– عندما سئل: "من هذا بين يديك يا أبا بكر؟، فيقول: هاد يهديني"[1]، فظن السائل أن الصديق يقصد الطريق، وهو لا يقصده، وإنما كان يقصد أنه يهديه سبيل الخير، والذي كان معه هو رسول الله –صلى الله عليه وسلم– ، ولم يصرح باسمه تنفيذاً للتربية الأمنية التي تلقاها من رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، لن الهجرة كانت سراً وأقره الرسول –صلى الله عليه وسلم– على ذلك[2] – إلا أن الأولى ترك المعاريض والتصريحُ بما لا تعريض فيه طلباً لبلوغ أعالي درجات الصدق في القول.

ويلي ذلك أن يراعي المتكلم معنى الصدق في الألفاظ التي يناجي بها ربه، من مثل قراءة قوله –تعالى–: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ المُسْتَقِيمَ﴾[3] وقوله: ﴿ وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ المُشْرِكِينَ﴾ [4] وقول المسلم: إني عبدالله.

وللصدق بواعث، أولها: الدين، فإنه يأمر بالصدق ويحث عليه وينهى عن الكذب ويحذر من عواقبه.

ثانيها: العقل، فإن ذوي العقول لا يرضون أن يعيشوا إلا مع الصدق وعليه؛ لأنهم يعلمون أن السعادة لن تكون إلا بالصدق، وأن المجتمع لا ينقاد إلا للصادقين، ولا يضع لغير الصادقين اعتباراً.

ثالثها: المروءة، فهي مانعة من الكذب شرعاً وعرفاً، فالكاذب لا مروءة له، وكلامه في المجتمع هدر، بل وجوده بين الناس مهمّش.

---

(1) اخرجه أحمد في مسنده، رقم: 12256، ووصف بالصحة على شرط مسلم.

(2) ينظر أبو بكر الصديق –رضي الله عنه–شخصيته وعصره، علي محمد الصلابي،

(3) سورة الفاتحة، آية 6.

(4) سورة الأنعام، آية:79.

رابعها: حب التحلي بالصدق والاشتهار به؛ لأن أي شخص يعلم أن غير الصادق في حكم الأموات، بالرغم من أنه حي يرزق، ومن السهل على من يريد الصعود إلى الكمال أن يعوّد نفسه ويروضها على التحلي بخلق الصدق، فقد قيل:

عوّد لسانك قول الصدق تحط به ∴ إن اللسان لما عوّدت معتاد

وكما أن للصدق بواعث له –أيضاً– نتائج تعود على من اتصف به بخير عميم، ومن أهمها:

1–يمنح الله الصادق الهدوء النفسي وطمأنينة القلب، يقول الحسن بن علي – رضي الله عنهما–: "حفظت من رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: "دعم ما يريبك إلى مالا يريبك، فإن الصدق طمأنينة وإن الكذب ريبة"[1].

2–يبارك الله للصادق في نفسه وفي أولاده وفي أمواله، يقول –صلى الله عليه وسلم– "البيعان بالخيار ما لم يتفرقا، فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعها، وإن كذبا وكتما محقت بركة بيعها"[2].

3–يفرج الله هم الصادق وينجيه من الكرب، كما حدث لكعب بن مالك ومن معه.

4–يجازي الله الصادق بفوزه بمنازل الشهداء، قال رسول –صلى الله عليه وسلم– : "من سأل الله الشهادة بصدق بلّغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه"[3].

5–إن الله يوجه الصادق للعمل الصالح في الدنيا، ويغفر ذنوبه في الاخرة.

---

(1) اخرجه أحمد في سنده، رقم 1723؛ الجامع الصغير، 23/2.

(2) الجامع الصغير، 220/1.

(3) الجامع الصغير، 298/2.

6- الصدق منجاة، وصاحبه لا يندم عليه ، ولو وقع بسببه أحياناً في ضيق فإن عاقبته ستكون حميدة، وحوادث التاريخ التي سنستعرض بعضها إن شاء الله تعالى يتضح منها.

ونظراً لأهمية الصدق ومكانته العظيمة ونتائجه الجيدة على الأفراد والجماعات فقد أمر القرآن الكريم به، وحثت على التحلي به السنة النبوية، ودعا إليه أهل الصلاح والخير.

فمن القرآن الكريم قول الله -تعال-: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [1]،وقوله -جلت حكمته-: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً﴾ [2].

ويظهر جلياً في الآيتين أن اقتران التقوى بالصدق يدل على أنه لا تقوى بدون صدق ولا صدق بدون تقوى.

ومن السنة النبوية:

أ- ما ورد عن النبي -صلى الله عليه وسلم- فيما رواه ابن مسعود أنه قال: "عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً"[3].

ومن الواضح أن لفظ "عليكم" في نص الحديث يفيد الوجوب؛ لأنه اسم فعل أمر يؤدي ما يؤديه فعل الأمر المطلق، وقد بين الحديث حكمة الدعوى إلى التحلي بالصدق، وهي كونه يهدي إلى البر والبر معناه: جماع خصال الخير والكمال، وما تتوفر به خصال الخير والكمال يكون مطلوباً من المسلم؛ لأن الإسلام جاء إلى غرس هذه الصفات في النفوس؛ ليتم التعامل على وفقها والسلوك على هديها، وإذا

---

(1) سورة التوبة: آية 119.

(2) سورة الأحزاب، آية 70.

(3) صحيح مسلم مع شرح النووي، باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله، 160/16.

توفرت هذه الصفات في مجتمع كان مجتمع خير وصلاح جدير بأن ينال الرضا والرضوان من خالق الكون ومدبره ، وقد بيّن الرسول –صلى الله عليه وسلم– أن البّر من صفاته أنه يقود المتصف به إلى الجنة، ودخول الجنة من أعظم ما يسعى إليه.

ومعنى قوله –صلى الله عليه وسلم–: "حتى يكتب عند الله صديقاً": المراد إظهار ذلك للمخلوقين، إما بأن يكتبه في ذلك ليشتهر بحظه من صفة الصدق في الملأ الأعلى، وإما بأن يلقي ذلك في قلوب الناس وألسنتهم، ويوضع له القبول[1].

ب– ما روي عن النبي –صلى الله عليه وسلم– أنه قال: "تحروا الصدق وإن رأيتم أن فيه الهلكة، فإن فيه النجاة"[2].

قد يقع الإنسان في مشكلة وتحدثه نفسه بالكذب، لأن فيه نجاته في الدنيا، ويكون ذلك خلاف الحقيقة، ويعيش في صراع، ثم يؤثر نجاة الآخرة لدوامها وبقائها على النجاة في الدنيا لسرعة انقضائها، فيصدق فيفوز برضا النفس ورضا الخالق – سبحانه وتعالى– ، ويجد برد الصدق ينزل على قبله، فيكون أحلى عنده من الشهد، كما حصل لكعب بن مالك حين تخلف عن غزوة تبوك فكان صادقاً في بيان سبب تخلفه، وتاب فقبل الله توبته وأنزل في حقه قرآناً يتلى، كما سيتضح حين يأتي الحديث عن قصته.

ومن أقوال أهل الصلاح والخير ما ثبت:

أ– عن ابن عباس –رضي الله عنهما– أنه قال: " أربع من كنّ فيه فقد ربح: الصدق ، والحياء، وحسن الخلق – والشكر"[3].

---

(1) ينظر شرح النووي على صحيح مسلم، باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله، 160/16.

(2) هذا صدر حديث تمامه: " "واجتنبوا الكذب وإن رأيتم أن فيه النجاة، فإن فيه الهلكة" الجامع الصغير، 222/1.

(3) إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، 374/4.

ب- عن مالك بن أنس -رحمه الله- قال: "قلّما كان رجل صادقاً لا يكذب إلا متع بعقله ولم يصبه ما يصيب غيره من الهرم والخرف"[1].

ج-قال وهب بن منبه: وجدت على حاشية التوراة اثنين وعشرين حرفاً كان صلحاء بني إسرائيل بل يجتمعون فيقرءونها ويتدارسونها، وذكر منها: ولا دليل أفصح من الصدق، ولا حارس أحفظ من الصمت، ولا غائب أقرب من الموت[2].

د- قال يزيد بن الحارث: إذا استوت سريرة العبد وعلانيته فذلك النصف، وإن كانت سريرته أفضل من علانيته فذلك الفضل، وإن كانت علانيته أفضل من سريرته فذلك الجور[3].

وقد قيل[4]:

إِذَا السِّرُّ وَالْإِعْلَانُ فِي الْمُؤْمِنِ اسْتَوَى ∴ فَقَدْ عَزَّ فِي الدَّارَيْنِ وَاسْتَوْجَبَ الثَّنَا

فَإِنْ خَالَفَ الْإِعْلَانُ سِرًّا فَمَا لَهُ ∴ عَلَى سَعْيِهِ فَضْلٌ سِوَى الْكَد وَالْعَنَا

فما خالص الدينار في السوق نافق ∴ ومغشوشه المردود لا يقتضى المنا[5]

وقد عرف المسلمون الأوائل ما للصدق من آثار حميدة ترجع على المتمسكين به، فكانوا صورة صادقة تتمثل فيهم أخلاق دينهم، وبذلك نالوا ما تمنوا من السعادة ورضى النفس، وأسهموا بسلوكهم في نشر الإسلام في ربوع الأرض شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً بسرعة لولا صدقهم لما تحقق لهم ذلك في بقاع بعيدة وبين أمم كانت

---

(1) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، 288/8.

(2) إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، 375/4.

(3) المرجع السابق، 379/4.

(4) المرجع السابق، 379/4.

(5) المنا: الذي يوزن به، مختار الصحاح، الرازي، مادة: م ن ا.

ترى عزتها فيما عاشت عليه من ديانات نسخها الإسلام وحكم عليها بالانتهاء، ونورد بعض الأمثلة التي توضح ذلك.

1- تنقل التجار المسلمون في جنوب شرق آسيا، وهي على ما هي عليه من الديانات والشرائع التي لا يعترف بها الإسلام، وقد عاشوا في تجاربهم على الصدق في القول والعمل والنوايا، وتعاملوا مع المجتمعات التي تواجدوا فيها بالصفا والتحلي بأخلاق الإسلام التي تدعو إلى البعد عن استغلال الناس والتمويه عليهم ومعاملتهم بالخديعة والغش، فتأثرت المجتمعات التي حل فيها التجار المسلمون على الوفاء والصدق، واعتنقوا الإسلام في كثير من المناطق دون حاجة إلى الجيوش واستعمال السلاح، والفضل في ذلك كله يرجع إلى صفة الصدق.

2- من الحوادث التي تروى أن امرأة أعطت لولدها عندما انست فيه الرشد أربعين ديناراً وطلبت منه أن يتجّر بها، وأوصته أن يتحلى بالصدق في أموره، فلما باشر عمله اعترضته ومن معه عصابة قطاع الطرق، وطلبت منه تسليم ما معه، فأجاب عن سؤالهم كم معك؟ قال: أربعين ديناراً، فأمروه بإخراجها وتسليمها لهم فوجدوها كذلك لا تزيد ولا تنقص، فسألوه : ما الذي حملك على أن تصرح بما عندك وكان من الممكن أن تخفيها؟ فقال:إن والدتي عندما كلفتني بالإتجار وسلمتني هذا المبلغ أوصتني بأن أكون صادقاً، ولا يصح أن أخالف وصية والدتي، فضرب رئيس العصابة رأسه وقال: سبحانه الله، أنت لا ترضى أن تخون والدتك، وأنا اخون الله كل يوم، ثم قال له: أشهد الله إني تائب على يديك، فتاب من ذلك الحين، وتبعته بقية العصابة في ذلك[1].

(1) ينظر خلق المؤمن، مصطفى مراد ، دار الفجر للتراث – القاهرة، ط1، 1426هـ -2005م، ص45.

3-توجه قتيبة بن مسلم بجيشه لفتح سمرقند، وكان الواجب عليه ألا يدخلها بجيشه إلا بعد أن يخبر أهلها في اختيار واحد من ثلاثة أمور، تطبيقاً لمنهاج نشر المسلمين للإسلام، وتنفيذ أوامر الدعوة إلى الله، وهي: أن يختاروا الدخول في الإسلام، أو أن يختاروا دفع الجزية للمسلمين مقابل ما يحصلون عليه من الحماية والرعاية في ظل حكم الدولة الإسلامية، فإن لم يختاروا واحداً من الاثنين يخبرونهم بأن عليهم أن يتحملوا نتيجة القتال، فلما لم يطبق قتيبة هذا المبدأ، ودخل المدينة بجيشه اشتكى سكانها إلى الخليفة عمر بن عبدالعزيز، فأحال شكايتهم إلى قاضيه في المنطقة، فحقق القاضي في الشكوى، وثبت لديه مخالفة قتيبة للمبادئ المذكورة، فقضى بخروج الجيش من المدينة وعرض المبادئ المذكورة على سكان سمرقند، فأمتثل القائد لذلك وخرج بجيشه.

ولما رأى المتظلمون صدق المسلمين في قضائهم، وفي تطبيق المبادئ العادلة وتنفيذ شرع الله دون اغترار بالقوة ، ودون تمسك بنصر لم يقم على المبادئ التي من أجل تحقيقها قطعوا المسافات الشاسعة وتحملوا متاعب السفر، وكان لصدق الخليفة ولصدق القاضي في حكمه وامتثال قائد الجيش بالخروج من المدينة انصياعاً لحكم القاضي الأثر الكبير الذي جعل المتظلمين يتنازلون عن تظلمهم، ويسمحون بعودة الجيش ودخوله إلى المدينة، ليعيشوا في ظل الإسلام ومبادئه العادلة، ولولا الصدق في تطبيق مبادئ الإسلام والخضوع لها ما كان هذا التسامح من أهل سمرقند، ورضاهم بحكم الإسلام والمسلمين.

4-حفل التاريخ بقصة النعمان بن المنذر التي قامت على الصدق، فأدى نتائجه على أكمل وجه وأصدقه، وملخصها أن النعمان بن المنذر ملك الحيرة خرج ذات يوم على فرسه الجموح ليصطاد، فأجراه على أثر حمار وحش، فذهب به الفرس في الأرض ولم يقدر على ضبطه، وانفرد عن أصحابه، واضطرته

الأمطار للجوء إلى بيت يحتمي به، فأحسن صاحب البيت استقباله، وكان من قبيلة طيء، فآواه، ثم أخبر الرجل زوجته بحال الضيف وما يتمتع به من عظيم الهيئة واكتمال الشخصية، وقال لزوجته: ما الحيلة في إكرامه؟، فقالت: عندي شيء من طحين كنت أدخرته فاذبح الشاة لاتخذ من الطحين ملّة، فأخرجت المرأة الدقيق وصنعت منه ملّة، وقام الطائي إلى الشاة فاحتلبها ثم ذبحها وسلخها واتخذ منها مرقا ولحماً وقدمه للضيف مع الملة واللبن وشيء من الشراب، وجعل يحدثه بقية ليلته، فلما أصبح النعمان لبس ثيابه وركب فرسه ، ثم قال: يا أخاطئ، أطلب ثوابك، انا الملك النعمان، قال الطائي: أفعل إن شاء الله، ثم دهب إلى بلاده الحيرة

ولما ساءت حالة الطائي اقتصادياً أشارت عليه زوجته بأن يذهب إلى النعمان الذي كان ضيفاً عليه ووعد بأن يرد له الجميل، فنفد هذه الإشارة، وأقبل على النعمان، ومن سوء حضه أن قدومه عليه، كان في يوم بؤسه، فإذا هو واقف في خيله بالسلاح، فلما نظر إليه النعمان عرف وساءه مكانه، فقال له: أنت الطائي؟ قال: نعم، قال: أفلا جئت في غير هذا اليوم؟!، والله لو جاءني في هذا اليوم قابوس ابني لم أجد بداً من قتله، فأطلب حاجتك من الدنيا وسل ما بدا لك فإنك مقتول، فقال له: وما أصنع بالدنيا بعد نفسي، فقال النعمان: إنه لا سبيل إليها، قال الطائي: فإن كان لابد فأجلني حتى ألمّ بأهلي فأوصي إليهم وأهيئ حالتهم ثم آتيك، فقال النعمان: فأقم لي كفيلاً بموافاتك، فطلب الطائي شريك بن عمرو بن قيس من بني شيبان، وكان واقفاً بجنبه، فأبى شريك أن يتكفل به، فوثب إليه رجل من كلب يقال له: قراد بن أجدع، فقال للنعمان: هو عليّ، قال النعمان: أفعلت؟ قال: نعم، فضمّنه إياه ثم أمر للطائي بخمسمائة ناقة، فمضى الطائي إلى اهله بما تحصل عليه من الهدية الثمينة، وجعل الأجل حولاً من يومه ذلك إلى مثل ذلك اليوم من قابل، فلما حال

عليه الحول وبقي من الأجل يوم قال النعمان لقراد: ما أراك إلا هالكاً غدا، فقال قراد:

فإن يك صدر هذا اليوم ولى ∴ فإن غدًا لناظره قريب

فلما أصبح النعمان أمر بقتل قراد، لكن وزراءه قالوا له : ليس لك أن تقتله حتى يستوفي يومه، فتركه، وكان النعمان يشتهي أن يقتل قراداً ليفلت الطائي من القتل، فلما كادت الشمس تغيب وقرا د مهيأ للقتل ظهر لهم شخص من بعيد، فكف النعمان عن قتل قراد حتى انتهى إليه الشخص فإذا هو الطائي، فلما نظر إليه النعمان شق عليه مجيئه فقال له: ما حملك على الرجوع بعد إفلاتك من القتل، فقال الطائي: الوفاء، قال النعمان: وما دعاك إلى الوفاء، قال: ديني، قال النعمان: وما دينك؟ قال: النصرانية، قال النعمان: فأعرضها عليّ، فعرضها عليه، فتنصّر النعمان وأهل الحيرة أجمعون، وكان قبل ذلك على دين العرب، فترك القتل منذ ذلك اليوم، وأبطل تلك السنة السيئة، وعفا عن قراد وعن الطائي، وقال: والله ما ادرى أيهما اوفى وأكرم، أهدا الذي نجا من القتل فعاد، ام هذا الذي ضمنه والله لا أكون ألأم الثلاثة[1].

وهكذا يفعل الصدق بأصحابه.

5-ذكر الله في سورة التوبة أنه تاب على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة، والمراد بساعة العسرة غزوة تبوك، وقيل في حقها: ساعة العسرة؛ لأن خروج النبي -صلى الله عليه وسلم- وصحبه لها كان في قيظ شديد[2]، ولأن المسلمين في تلك الغزوة تجمعت عليهم عسرة الظَّهر

(1) ينظر مجمع الأمثال، أبو الفضل أحمد بن محمد الميداني النيسابوري، دار المعرفة، بيروت، تح: محمد محي الدين عبدالحميد، ص70

(2) ينظر فتح الباري بشرح صحيح البخاري، 78/8.

وعسرة الزاد وعسرة الماء[1]، ومع ذلك كله امتثلوا لأمر الله لهم بالجهاد، فاستحقوا هذا الجزاء العظيم الذي بشرهم به في قوله –تعالى–: ﴿ لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ العُسْرَةِ.....﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [2].

ثم عطف على ذلك قبول توبة ثلاثة من الصحابة تخلفوا عن الغزوة المذكورة، وكان منهم كعب بن مالك الذي جاء إلى الرسول بعد مجيئه من الغزوة فوجده في المسجد، فسلم عليه، فتبسم رسول الله –صلى الله عليه وسلم– تبسّم المغضب وناداه، فجلس كعب بين يدي رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فقال له: "ما خلفك؟، الم تكن قد ابتعت ظهرك؟"، فأجاب كعب بقوله: "إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أعطيت جدلاً، ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله أن يسخطك عليّ، ولئن حدثتك حديث صدق تجد عليّ فيه إني لأرجو عقبى الله، والله ما كان لي عذر، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك" فقال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: "أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك".

وقد جاء إلى النبي –صلى الله عليه وسلم– قبل كعب رجلان هما: هلال بن أمية الواقفي، ومرارة بن ربيعة العامري، وأخبراه صادقين عن سبب تخلفهما، فقال لهما مثل ما قال لكعب.

وبعد المقابلة المذكورة أمر الرسول –صلى الله عليه وسلم– الصحابة بمقاطعتهم خمسين يوماً، فأما هلال ومرارة فاحتجبا عن الناس ومكثافي بيتهما يبكيان ندماً على تخلفهما عن شهود الغزوة المذكورة، وأما كعب بن مالك فقد قال عن نفسه: "كنت اخرج فأشهد الصلاة وأطوف في الأسواق ولا يكلمني احد، وآتي رسول الله –

(1) ينظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، 8/278–279.

(2) سورة التوبة، آية 117.

صلى الله عليه وسلم- فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: هل حرّك شفتيه برد السلام أم لا، ثم أصلي قريباً منه وأسارقه النظر ، فإذا أقبلت على صلاتي نظر إليّ، وإذا التفت نحوه اعرض عني، حتى إذا طال ذلك علي من فجوة المسلمين مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة، وهو ابن عمتي وأحب الناس إليّ، فسلمت عليه، فوالله ما ردّ عليّ السلام، فقلت له: يا أبا قتادة، أنشدك بالله: هل تعلمنّ أني أحب الله ورسوله؟ قال: فسكت، فعدت مناشدته فسكت، فعدت مناشدته فقال: الله ورسوله أعلم، ففاضت عيناي ، وتوليت حتى تسورت الجدار، فبينا انا امشي في سوق المدينة إذا نبطي من نبط الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدلّ على كعب بن مالك؟ قال: فطفق الناس يشيرون له إليّ حتى جاءني فدفع إليّ كتاباً من ملك غسان، وكنت كاتباً فقرأته فإذا فيه: أما بعد، فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة فألحق بنا نواسك، قال: فقلت حين قرأتها: وهذه أيضاً من البلاء: فتياممت التنور فسجرته بها، حتى إذا مضت أربعون من الخمسين واستلبت الوحي إذا رسول رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يأتيني فقال: إن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يأمرك أن تعتزل امرأتك، قال: فقلت : أطلقها ام ماذا أفعل؟ قال: لا، بل اعتزلها فلا تقربنّها، قال: فأرسل إلي صاحبي بمثل ذلك، قال: فقلت لامراتي: الحقي بأهلك، فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر ... قال: فلبثت بذلك عشر ليال، فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهى عن كلامنا، قال: ثم صليت صلاة الفجر صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا، فبينا انا جالس على الحال التي ذكر الله منا قد ضاقت عليّ نفسي، وضاقت عليّ الأرض بما رحبت سمعت صوت صاروخ أوفى على (سلْع)[1] يقول بأعلى صوته: يا كعب بن مالك: أبشر، قال: فخررت ساجداً، وعرفت أن قد جاء

(1) أوفى على سلع : أي أشرف على جبل سلع، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، 286/8.

فرج ، قال: فآذن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– الناس بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر، فذهب الناس يبشروننا، فذهب قبل صاحبي مبشرون" فسمع كعب صوت البشر يبشره، فلام جاءه الذي سمع صوته نزع ثوبيه فكساه إياهما ببشارته، ثم قال: "فانطلقت أتأمم رسول الله –صلى الله عليه وسلم– .... حتى إذا دخلت المسجد فإذا رسول الله –صلى الله عليه وسلم– جالس في المسجد وحوله الناس .... فلما سلمت على رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال وهو يَبْرق وجهه من السرور: "أبشر بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمك" قال: فقلت: أمن عند الله يا رسول الله أم من عندك؟ قال: "لا بل من عند الله"، وكان رسول الله – إذا سرّ استنار وجهه حتى كأن وجهه قطعة من قمر" فأراد كعب أن يتصدق بماله كله فرحاً بتوبة الله عليه، فقال له الرسول –صلى الله عليه وسلم– : "امسك عليك بعض مالك فهو خير لك"، قال كعب: "وقلت يا رسول الله، إن الله إنما انجاني بالصدق، وإن من توبتي ألا أحدث إلا صدقاً ما بقيت، قال: فوالله ما علمت احداً من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله –صلى الله عليه وسلم– إلى يومي هذا أحسن مما أبلاني الله به، والله ما تعمدت كَذِبة منذ قلت ذلك لرسول الله –صلى الله عليه وسلم– إلى يومي هذا، وإني لأرجو الله أن يحفظني فيما بقي[1].

6–حفلت كتب السنة بقصة ماعز والغامدية واعترافهما بالزنا اعترافاً لا شائبة تشوبه ولا شك في صحته، وصدوره عنهما وهما بكامل الصحة الجسدية والنفسية يدل على مدى ما يتمتعان به من صدق الإيمان وخلوصه، ورغبتهما في إرضاء ربهما وتطهير نفسيهما مما وقعا فيه، وإيمانهما الصادق جعلهما يؤثران عذاب الدنيا على عذاب الآخرة، ورضا ربهما عن سخطه، استجابة لدعوة الله ورسوله بأن يكون المسلم صادقاً في إيمانه، ساعياً للتوبة النصوح،

(1) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، 8/284–287.

متوجهاً إليها بكل أحاسيسه ومشاعره، وهو يعلم أن الله يقبل توبة التائبين الصادقين، مهما عظم الذنب ما دام لم يشرك بالله، قال –تعالى–: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى﴾[1]، وقال –أيضاً– ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾[2].

وقد أذن الرسول –صلى الله عليه وسلم– لصحابته بأن يقيموا عليهما حد الرجم؛ لأنهما كانا محصنين، فنُفد فيهما ذلك، وانتقلا إلى جنة عرضها السموات والأرض.

ولو امتد هذا الإيمان وعمرت بمثله قلوب الناس في هذا الزمان لكان المجتمع غير المجتمع، ولكان الناس في سعادة وإخاء وتآلف ومودة، ولكان الأمن مستتباً في ربوع الأرض، ولاختفت الصراعات والحروب المدمرة، ولوقف كل إنسان عند حدوده، وعلى فرض صدور الخطأ – وهو لابد واقع– فيكون العلاج من صاحبه قبل غيره، ويقل الاحتكام إلى القضاء، وتنعدم أو تقل الخصومات والمشاحنات التي ملأت الدنيا في هذا الزمان، وما ذلك إلا لعدم صدق الناس في أقوالهم وأفعالهم ونواياهم ومعتقداتهم وصار النفاق مسيطراً على المجتمعات.

وإسلامنا يدعونا إلى فهم كتاب الله وسنة نبيه الكريم فهماً مصحوباً بصدق الإيمان على تنفيذ ما ورد فيهما دون تسويف أو خداع؛ لكي نضمن نجاح المسيرة، وسلامة المسلك، وبناء المجتمع المسلم الذي يرهبه أعداء الله ويخشون بأسه، وبدون ذلك سنبقى عاجزين لا حول لنا ولا طول.

---

(1) سورة طه، آية 82.

(2) سورة النساء، آية48.

بسم الله الرحمن الرحيم

وقائع تضاف إلى موضوع الصدق:

1-روي أن أحد الطلبة الليبيين أقام مع أحدى العائلات في بلد أوروبي زمن دراسته ،وفي أحد الأيام خرجت الأسرة التي يقيم معها وتركت طفلها الصغير مع الليبي فكسر الطفل إناء دون قصد، وخشي الليبي معاقبة الأم لطفلها بسبب ذلك فطلب منه الصمت على أن يدعي هذا الطالب الليبي أنه هو الذي كسر الإناء وهذا ما حصل بالفعل عند عودة الأم، إلا أن هذا الطفل لم يتحمل وزر هذا الخبر غير الصادق فسارع إلى إخبار أمه بأنه هو الذي قام بكسر الإناء عن طريق الخطأ، فبادرت الأم إلى الطلب من هذا المواطن الليبي إلى مغادرة البيت لأنه والحالة هذه سيفسد عليها ابنها وما تعود عليه من الصدق في جميع الأحوال.

2-يروى أن أحد ملوك الروم زمن الخليفة عبدالملك بن مروان طلب منه إرسال وفد للتجارة وزيارة مملكة الروم في ذلك العهد فأرسل الخليفة عبدالملك عدداً من التجار ومعهم التابعي الجليل عامر الشعبي ت104هـ الذي كان يمتاز بحسن الحديث وروعة المسامرة والذكاء والفطنة فلما أعجب به ملك الروم أبقاه معه مدة طويلة وفي نهاية الزيارة حمله رسالة إلى عبدالملك بن مروان وحينما وصل الشعبي إلى دمشق سلم من فوره تلك الرسالة إلى الخليفة عبد الملك دون أن يحاول الشعبي معرفة ما فيها ، وعندما قرأ عبدالملك هذه الرسالة اتضح أن فيها ما يفيد كيف يولي المسلمون رجلاً آخر عليهم مع وجود رجل عظيم مثل الشعبي، وكان ملك الروم بهذه الرسالة يقصد الوقيعة بالشعبي، فغضب عبدالملك من الشعبي وقال له هل يرضيك ما في هذه الرسالة؟ فأجاب الشعبي: يا أمير المؤمنين إن ملك الروم غبي لأنه لو رآك

عرف أني لا أساوي شيئاً أمام مقدرتك وذكائك فأعجب عبدالملك بجواب الشعبي وقال له: إني كنت أعلم أن هدف ملك الروم من هذه الرسالة هو إحداث فتنة بيني وبينك وأقتلك كي أحرم ويحرم المسلمين منك ، وبعد ذلك أرسل عبدالملك رسالة إلى ملك الروم يخبره بأن ما قصده من الرسالة انكشف ولم يفلح في الوقيعة التي خطط لها، ويقال أن ملك الروم اعترف أن ما كان قصده من تلك الرسالة إلا الوقيعة فعلاً.